من أدب نهج البلاغة (الوصف في نهج البلاغة)

الدكتور
علي الأسديّ
كليّة الشهيد مطهري للإلهيّات والمعارف الإسلاميّة
جمهورية إيران الإسلاميه

المقدّمة:

الحديث عن الوصف كالوصف نفسه في صعوبته وتطلّبه جهداً كبيراً لتوفيته حقّه وذلك لتشعّبه وشموليّته، لاسيّما إذا كان في نهج البلاغة إذ ورد فيه مفصّلاً بتعدّد أنواعه وامتزاجه بالأغراض الأدبيّة الأُخرى.

وقد فاض النهج بالوصف بل بكثرة مواطنه فلا يتسنّى الإحاطة بكلّ ماورد منه إلاّ إذا كان بالغ الأهميّة. وهو ليس بدعاً في كلام الإمام عليه السلام إذ إنّ له جذوراً قرآنيّة تتبيّن في الآيات القرآنيّة الكثيرة التي تصف الله سبحانه وتعالى، ونبيّه صلى الله عليه وآله، والأنبياء:، والصحابة رضي الله عنهم، والمتّقين، والمؤمنين، والمنافقين، والكافرين، وكثيراً من الأشياء. وليس هنا موضع ذكرها.

والذين ينتهجون الوصف أو يحترفونه ذوو نزعات شتّى. فمنهم من يصف رغبةً في الوصف نفسه إذ تطيب له نفسه وليشعر بلذة في إطلاق عبائره الوصفيّة، فهو عنده كالهواية؛ ومنهم من يصف ليبيّن قابليّته على التعبير والتحليل بعد ملاحظة الأشياء ومراقبتها؛ ومنهم من يصف ليؤدّي دوراً في الكشف والتبيين، فالوصف عنده كما قال عبد اللطيف محفوظ هو الخطاب الذي يسم كلّ ما هو موجود فيعطيه تميّزه الخاصّ وتفرّده داخل نسق الموجودات المشابهة له أو المختلفة عنه (محفوظ: ١٣)؛ ومنهم من يصف لينبّه على أشياء مهمّة مغفول عنها؛ ومنهم من يصف ليبيّن عظمة الموصوف أو حقيقته وكنهه أو ظلامته المتمثّلة بالتفريط في حقّه؛ ومنهم من يصف للتبجيل والتثمين والتقدير عرفاناً للجميل؛ ومنهم من يصف للتعريف بشيء مجهول؛ ومنهم من يصف للتسلية وقضاء الوقت. وهكذا تتباين توجّهات الواصفين وتتفاوت أوصافهم. ولعلّ أصعب غرض من الاغراض الأدبيّة هو الوصف لتطلّبه مهارة فائقة. ((والوصّاف هو الذي تتوافر فيه ملكة ملاحظة الأشياء، ومراقبتها بدقّة متناهية، والتأمّل في التفاصيل والألوان والحركة والصفات والأفعال)). (الشاميّ: ٦)

أمّا الوصف المطلوب فهو الوصف العمليّ. ويراد بالوصف العمليّ هو الوصف الذي يترك أثراً تربويّاً طيّباً، أو ينتج سجيّةً أخلاقيّةً محمودة، أو يولّد نظاماً قيميّاً حميداً، أو يحفّز على صنع موقف جليل كريم. وسيأتي تفصيل ذلك مع الأمثلة في هذا البحث لاحقاً. فشعار هذا البحث هو الوصف للعمل. وهنا تكمن عظمة الوصف وجماله وجلاله في نهج البلاغة. فهو فيه للعمل. وسنستعرضه في أنواع الوصف بنحو مبسوط، بيد أنّه من المستحسن هنا أن نذكر مثالين موجزين: حينما يصف الإمام عليه السلام ربّه سبحانه فانّه يزرع الايمان بوجود الله تعالى في قلوب السامعين، ويزيد المؤمنين بصيرةً بوجوده، ويرغم المنكرين والملحدين على الإيمان به جلّ وعلا. وحينما يصف الدنيا فانّه يزهّد الناس فيها، ويرغّبهم عنها، ويُسعدهم باحتقارها وامتهانها، ويعالج أدواءها. وقال الشيخ محمّد عبده في تعليقه على الخطبة القاصعة: ((... لأنّ سامعها لو كان متكبّراً ذهب تأثيرها بكبره كما يذهب الماء بالعطش)) (ص ١٣٧، هامش٣). وهكذا وصفه لسائر الأشياء فانّه الوصف العمليّ الوافي الذي يحقّق نقلةً في عالم الحقيقة فيجعل الإنسان يدرك حقيقة الأشياء، بل يرفعه من الشكّ إلى اليقين، ولا يتيسّر استيعابه في بحث واحد. وهو عنده عليه السلام وسيلة للتعريف بالأشياء. كما يدلّ على بالغ اهتمامه بما يجري حوله. وهذه آية موقفه السديد عليه السلام من كلّ شأن من الشؤون العامّة بمختلف أنواعها. ولم يكن دأبه عليه السلام في وصفه الافتنان والتسلية قطّ. وهو القائل لجنده الذين سبّوا أهل الشام: ((... لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر...)) (نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٤).

لأنّ الوصف المنصف أبلغ من الشتم والسباب وأنجع أثراً. وفيه دلالة على الاعتدال وقوّة الحجّة. وقد يُفضي إلى الاقناع ومحاجّة الخصم. ويعلّم الانسان درساً في التعامل الموضوعيّ الهادىء مع أُولي الفكر المضادّ، وهذا مظهر من مظاهر الوصف العمليّ في النهج، وهو الوصف الذي يترك أثره التربويّ الناجع في كسب الخصم، ويبتعد عن الإجحاف في التقويم، ويُنهي التخاصم والتشاحن.

وينطوي الوصف على فوائد جمّة سترد في تضاعيف البحث. وصفوتها أنّه يولّد المعرفة، ويُضفي على الأشياء قيمتها الحقيقيّة، وهو أهمّ أُسلوب من أساليب التعبير بل يعلّم الانسان كيف يعبّر عن الأشياء، ويحقّق له نقلة مؤنسة إلى عالمها، ويفتح له آفاقاً رحبةً توسّع

مداركه الفكريّة. و((يلازم الوصف طبيعة النفس البشريّة خاصّة في طور البداوة)). (الحاويّ: ٧).

وجاء اختيار هذا الموضوع حرصاً على المعطيات الثمينة الثرّة التي يطفح بها الوصف في نهج البلاغة، لأنّه الوصف الدقيق العميق الصادق الذي يدلّ على حركة فاعلة هادفة أمام السكوت القاتل الدالّ على بلادة الإحساس، وكذلك شعوراً بالجفاء الذي لقيه عليه السلام من لدن كثير من العلماء والأُدباء إذ فرّطوا بحقّه بتركهم الاستنارة بكلامه عليه السلام والاستهداء بدرره الثاقبة نتيجة انفعالهم بالأجواء السياسيّة والاجتماعيّة التي فتحوا أعينهم عليها، أو فقدانهم البصيرة بتمسّكهم بالموروث من آبائهم الأوّلين، أو تأثّرهم بالتضخيم المتعمَّد لدور غيره على حسابه عليه السلام. وأهمّ من ذلك كلّه الأَوَد واللَدَد اللذان عانى منهما منذ بداية حياته الشريفة الى يوم استشهاده صلوات الله عليه كما صرّح نفسه بذلك. (نهج البلاغة، الخطبة ٦٨).

وجاء الاختيار أيضاً لاندراج الأغراض الأدبيّة الأُخرى من مدح وهجاء وفخر ورثاء وغيرها تحت الوصف، بل قل لشموليّته واستيعابه لسائر الأغراض المعهودة.

والشعور بالمسؤوليّة بعد الخوف من الله سبحانه، وتحكيم الضمير، ودعوة البصيرة كلّ اولئك يحتّم علينا الأخذ بكلامه والتزوّد من مِزْوَدِه عليه السلام لأنّه الرجل الذي اصطفاه الله تعالى، واندمج على مكنون علم لم يَبُح به، وله موضعه الفذّ من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وهو الذي انكشفت له الحجب ممّا طُوي عن الناس غيبه. (نهج البلاغة، الخطبة ٥؛ ١١٤؛ ١٩٠)، فكلّ ما نطق به حقّ لا ريب فيه. فالحاجة ماسّة إلى الأغتراف من بحره الزخّار. وما وصفه وصفة لكلّ داء فحريّ استيصافه لتطبيب الأدواء. فإذا توجّهنا إليه، وتفاعلنا معه أدركنا حقيقته وعرفنا سرّ عرضه وزال كلّ مجهول. وهذا هو المطلوب، إذ لو سأل سائل: لماذا وصف الإمام عليه السلام؟ فالجواب هو للكشف والتبيين، والتعريف والتعليم بحكم ما أُوتي من علمٍ لم يؤته أحد من هذه الأُمّة.

والوصف عن علمٍ هو الوصف الذي تتطلّع إليه النفوس وتطيب له، وتستهدي به. وكفى به مطمحاً.

ويسبق ما يقال عن الوصف في النهج ما قيل في وصف النهج نفسه لأنّ وصف النهج

يبعث على مزيد من الارتشاف والارتواء من ينبوعه العذب، والاصطباغ بصبغته الجميلة، والالتذاذ بطلاوته الجزلة، والتعرّف على كنوزه المغنية وفنونه الرائعة، ومنها الوصف الذي بلغ فيه الغاية، فهو بمسيس الحاجة الى العناية.

وحين تُطالَع الأقوال العَشَرة التي نقلها المرحوم المغفور له السيّد الحسينيّ الخطيب في الجزء الأوّل من موسوعته الجليلة الثمينة (مصادر نهج البلاغة وأسانيده) في وصف نهج البلاغة لايجد المطالع أجمل وأروع وأشمل وأنجع من وصف المرحوم الشيخ محمّد عبده (الحسينيّ الخطيب ١: ٨٩ - ٩٩). وأغلب الظنّ أنّ أحسن وصف للنهج هو الوصف المذكور، وبالموازنة بين تلك الأقوال يصدق الظنّ. وربّما يتّفق كثيرون في ذلك. ولا أحسب أنّ أحداً يمتري في بلاغته حتّى إنّ احمد الهاشميّ قد نقله في كتابه ((جواهر الأدب)) في الفنّ الرابع في الأوصاف تحت عنوان: ((وصف نهج البلاغة للإمام المرحوم الشيخ محمّد عبده المتوفّى سنة ١٣٢٢هـ. (الهاشميّ ٢٩٥ - ٢٩٦). وحين يقال: حتّى إنّ أحمد الهاشميّ قد نقله، لأنّه شيء عُجاب من الهاشميّ.

فوصف النهج يشجّع على اكتناه الوصف فيه. واكتناه الوصف فيه بعيد المنال، بيد أنّ مالا يدرك كلّه لا يترك كلّه. وقد مضت الحوافز على هذا البحث قريباً. وصفوة القول: إنّ مَن وصف الإمام عليه السلام وما وصف يدعو إلى التوفّر على ماوصف فتتبيّن حقيقة ما وصف. وقوام هذا البحث بعد ملخّصه ومقدّمته هو الوصف لغةً واصطلاحاً، ثمّ نظرة عامّة على الوصف في النهج. ويليها أقسام الوصف فيه متلوّةً بثمرتها المتمثّلة بنتيجة البحث.

- الوصف لغةً واصطلاحاً.

تكاد كتب اللغة تشترك في المعنى اللغويّ للوصف. وهو ما تُفصح به دون غموض، كما أنّ معناه الاصطلاحيّ يقترب من معناه اللغويّ إذ تدلّ عليه بعض المعاجم وكتب الأدب.

وأكتفي من كتب اللغة بلسان العرب لغنائه وإغنائه، ونقل المعاجم المتأخّرة عنه. ولرعاية الإيجاز. وأُسمّي اللّغويّين الآخرين فقط. قال ابن منظور: ((وصف الشيء له وعليه وصفاً وصفةً: حَلاّه، والهاء عوض الواو، وقيل: الوصف المصدر والصفة الحلية. الليث: الوصف وصفك الشيء بحليته ونعته. وتواصفوا الشيء من الوصف. وقوله عزّوجلّ: ﴿وَاللَّهُ

﴿الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أر اد ماتصفونه من الكذب. واستوصفه الشيء: سأله أن يصفه له. واتّصف الشيءُ: أمكن وصفه... واتّصف الشيء، أي: صار متواصفاً... واستوصفت الطبيبَ لدائي إذا سألته أن يصف لك ما تتعالج به. والصفة كالعلم والسواد. قال: وأمّا النحويّون فليس يريدون بالصفة هذا لأنّ الصفة عندهم هي النعت. والنعت هو اسم الفاعل نحو ضارب، والمفعول نحو مضروب وما يرجع إليهما من طريق المعنى نحو مثل وشبه، ومايجري مجرى ذلك)). (ابن منظور ٩: ٣٥٦- ٣٥٧. وللوقوف على ماذكر قبل هذا الكلام، يُنظَر: ابن سيده ٨: ٣٨٣؛ ابن فارس ٦: ١١٥؛ الأزهريّ ٩: ٣٥٨؛ الزمخشريّ: ٥٠١؛ الفيروزآبادي ٣: ٢٩٥، الزبيديّ ٢٤: ٤٥٩- ٤٦٢؛ الجوهريّ ٤: ١٤٣٨ - ١٤٢٩؛ الطريحيّ ٥: ١٢٨- ١٢٩. ونظائرهم من أصحاب المعاجم).

ومن المناسب أن ننقل ما ذكره العسكريّ في فروقه اللغويّة. قال: ((الفرق بين النعت والوصف: قيل: هما مترادفان. وفرّق بعضهما بينهما بأنّ الوصف ما كان بالحال المتنقلة كالقيام والقعود. والنعت: ما كان في خَلق وخُلق كالبياض والكرم. قيل: ولهذا لايجوز إطلاق النعت عليه سبحانه، لأنّ صفاته سبحانه لاتزول. قلت: ويردّه مافي الأدعية المأثورة. ومن ذلك: ((يا من عجزت عن نعته أوصاف الواصفين)). وغير ذلك من الأدعية.

قال ابن الأثير: النعت وصف الشيء بما فيه من حسن، ولا يقال في القبيح إلاّ أن يتكلّف، فيقال: نعت سوء. والوصف يقال في الحسن وفي القبيح)). (العسكريّ: ٥٤٥).

وأمّا الوصف اصطلاحاً فقد ورد في بعض المعاجم، وكتب الأدب بألفاظ متنوّعة. ونذكر منها ثلاثة لتبيان ماذُكر من التنوّع، واستيعاب ما تعدّد من التعاريف.

جاء في ((المعجم المفصّل في اللغة والأدب)) أنّ ((الوصف في الأدب هو نهج في التعبير يطابق نهجاً في الإدراك، ويجسّد سياقاً في الوعي مبعثه طبيعة النفس التي تعي ذاتها ومحيطها الطبيعيّ. وقوامه نقل المشاهد والأحداث والحالات كما تنعكس في مرآة الذات الانسانيّة، قولاً أو كتابةً... نستبعد كليّاً أن يكون الوصف مجرّد نقل وتصوير. ونؤكّد الحضور الانسانيّ فيما يُشاهد، ويُدرك، ويوصف)). (عاصي، بديع يعقوب ٢: ١٣٠٦). ثمّ يذكر المعجم المذكور أنّ الوصف ملازم لطبيعة النفس البشريّة. وانّه قسمان: نقليّ؛ ووجدانيّ. (نفسه: ١٣٠٦ - ١٣٠٧).

وقال احمد الهاشميّ في ((جواهر الأدب)): الوصف عبارة عن بيان الأمر باستيعاب أحواله وضروب نعوته الممثّلة له. وأصوله ثلاثة: أن يكون حقيقيّاً بالموصوف؛ أن يكون ذا طلاوة ورونق؛ أن لا يخرج فيه الى حدود المبالغة والاسهاب، ويكتفي بما كان مناسباً للحال... ولكنّها ترجع إلى قسمين: وصف الأشياء، ووصف الأشخاص. (الهاشميّ: ٢٦٥).

وذكر الدكتور عمر فروخ أنّ (الوصف في كلّ شيء نوعان: خياليّ وحسّيّ.

فالوصف الخياليّ يعتمد التشبيه والاستعارة ويحاول أن يستحضر الموصوف من الذاكرة. أمّا الوصف الحسّي فهو تصوير للموصوف. ولاريب في أنّ الوصف الحسّي أبلغ وأجود وأندر وأكثر صعوبةً من الوصف الخياليّ. وقد ذكر أبو هلال العسكريّ الوصف فقال (ص ١٢٨): ((أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف حتّى كأنّه يصوّر الموصوف لك فتراه نصب عينك)).

وأورد ابن رشيق قولاً بارعاً لبعض معاصريه يقول فيه (٢: ٢٧٩): ((أبلغ الوصف ما قَلَب السمعَ بصراً)).) (فروخ ١: ٨١). وقال قدامة بن جعفر: إنّ أحسنَ الوصف ما أحاط بأكثر صفات الموصوف. (الرياحيّ القسنطينيّ: ٦١).

هذا هو الوصف في الاصطلاح، لكنّه ليس مجرّد نقل عادي للأشياء فحسب بل هو نقل فنيّ تظهر فيه شخصيّة الواصف ناظماً كان أم ناثراً... ((وأفضل الوصف ما كان ايحائيّاً يسمو به صاحبه عن الواقع المادّيّ المحسوس المنقول وإن كان يعتمد عليه أساساً لكن دون أن يغرق في الابتعاد الكلّيّ عن حقيقة الشيء...)) (الشاميّ: ٥).

الذي يبدو ممّا قيل في الوصف الاصطلاحيّ انّه ملكة مودعة في جبلّة الإنسان. وانّه بيان يعبّر عن اهتمام الواصف بالإخبار عن الأشياء. والواصف كاشف ببراعةٍ مغبوطة لاسيّما إذا كان مبدئيّاً وليس له في الوصف مصلحة خاصّة. وماورد من معنى اصطلاحيّ للوصف ملحوظ في نهج البلاغة بكلّ جوانبه بخاصّة ما نقله ابن رشيق عن بعض معاصريه أنّ أبلغ الوصف ما قلب السمع بصراً. وسيأتي هذا المعنى في ثنايا البحث إن شاء اللّه. وهو من العجائب التي تفرّد بها الإمام عليه السلام في وصفه.

نظرة عامّة على الوصف في نهج البلاغة:

استأثر الوصف بمساحةٍ كبيرةٍ من نهج البلاغة. ودلّ على إبداعٍ عديم المثال في بابه. وله

من الجاذبيّة والطلاوة ما يستوقف المتأمّل و((يستفرغ العجب)) حقّاً. ولايراد من الوصف في نهج البلاغة ما عرض من مشتقّاته التي وردت قُرابة سبعين مرّةً فيه بل يراد منه ما نطق به الإمام عليه السلام في بيان الحقائق والأشياء، وما أجاب به المستوصِفين حين سألوه فأبلغ وأجمل في الجواب. وليس الوصف غرضاً مستقلاً في النهج بيد أنّه مبثوث في كلماته الناجعة الوافية.

وما هذه الدراسة إلاّ كشف عن حقيقته ومزاياه وأنواعه. والحقّ أنّ الوصف في النهج كغيره من الأغراض الأدبيّة مدرسة للتربية والتعليم، وفيها كلّ ما لذّ وطاب. ولا يتفاعل معه إلاّ صاحب الذوق الأدبيّ الرفيع. والموصوفات في النهج مشهودة محسوسة؛ وغيبيّة معقولة. أي: إنّ الإمام عليه السلام وصف ما يُرى وما لا يُرى، ووصفه لِما لا يُرى يحوّل السامع إلى ما يُرى. أي: لمّا كان وصفه عليه السلام للأشياء المرئيّة المحسوسة ينطبق على حقائقها فوصفه للأشياء غير المرئيّة غير المحسوسة يمنح الإنسان اليقين بحقيقتها. وهذا ما يحدو الإنسان على التوجّه إليه (الوصف) واستلهامه. وهو من فرائده ونوادره عليه السلام. واستقراء الوصف في النهج يدلّ على أنّه ليس غرضاً أدبيّاً فحسب بل هو غرض اجتماعيّ تربويّ تعليميّ يربّي المجتمع تربية سليمة سويّةً، ويعلّم الناس دروساً عميقة متنوّعة، ويضاعف علمهم بالأشياء، ويزيد الإنسان المؤمن بصيرةً، ويهدي الإنسان غير المؤمن إلى طريق مستقيم، ويُشعر كلّ أحد بلذّة روحيّة، ويباشر القلب فيسرّه، ويساهم في بناء النظام القيميّ في الحياة. وهذه هي مزاياه في النهج.

وهدف الوصف في نهج البلاغة - مباشراً كان أم غير مباشر، ووصف الأشياء كان أم وصف الأشخاص - هو إبانة الأشياء وبيان حقيقتها. وقد جاء مجرّداً في كثيرٍ من المواطن، كما جاء مزيجاً بالمدح أو القدح أو الفخر أو الرثاء في مواطن أخرى.

ولايتيسّر الإلمام بكلّ موضوعاته، بيد أنّ أهمّها يمكن أن يُذكر في هذه النظرة العامّة كعناوين بارزة توطئةً لأقسامه التي ستأتيّ في الفقرة اللاحقة.

وقد مرّ كلام ضافٍ في مقدّمة هذا الدراسة حول الوصف في النهج.

وطريف الكلام في النظرة العامّة على الوصف في النهج أنّنا لا نجد ((في الأدب العربيّ كلّه هذا المقدار الذي نجده في نهج البلاغة من روائع الفكر السليم والمنطق المحكم، في مثل هذا الاسلوب النادر)) كما قال جورج جرداق في روائعه (جرداق: ١٢)، فهو يحيط ((بهذا

الواقع ويبرزه ويُجلّيه، ويجعل له امتدادات من معدنه وطبيعته، ويصبغه بألوان كثيرة من مادّته ولونه، فاذا الحقيقة تزداد وضوحاً، وإذا بطالبها يقع عليها أو تقع عليه!)) (نفسه: ١٢)

((أمّا النظرية الفنّيّة القائلة بأنّ كلّ قبيحٍ في الطبيعة يُصبح جميلاً في الفنّ، فهي إن صحّت فانّما الدليل عليها قائم في كلام ابن أبي طالب في وصف من فارقوا الدنيا. فما أهول الموت! وما أبشع وجهه! وما أروع كلام ابن أبي طالب فيه وما أجمل وقعه! فهو قول آخذ من العاطفة العميقة نصيباً كثيراً، ومن الخيال الخصب نصيباً أوفر. فاذا هو لوحة من لوحات الفنّ العظيم لاتدانيها إلاّ لوحات عباقرة الفنون في اوربا ساعةً صوّروا الموت وهَوْلَه لوناً ونغماً وشعراً)). (نفسه: ١٣)

وصفوة القول انّ الوصف في النهج عالم رحب من البلاغة الساطعة المتألّقة ببيانها المتمثّل بالتشبيهات والاستعارات والكنايات والمجازات العقليّة والمُرسلَة؛ ومعانيها المتجسّدة في خبرها وإنشائها وقصرها ووصلها وفصلها وإطنابها وإيجازها ومساواتها وما شاكَهَ ذلك؛ وببديعها المشرق بجناسه وطباقه وتوريته ومقابلته وسجعه وحسن تعليله وما ماثلها من أخواتها.

وقد جاء قبل قليل أنّ الموصوفات في النهج قسمان: قسم لايقع عليه الحسّ؛ وقسم يقع عليه. أو هي بصبغة قرآنيّة:

موصوفات عالم الغيب؛ وموصوفات عالم الشهادة. ويُكتفى منها بالعناوين الآتية جواباً عن سؤالين هما: من وصف الإمام عليه السلام؟ وماذا وصف؟

موصوفات عالم الغيب:

الله سبحانه وتعالى؛ الملائكة:؛ بداية الخلق؛ خلق آدم عليه السلام؛ الموت؛ ملك الموت؛ عالَم مابعد الموت أو عالم البرزخ؛ خلق الإنسان؛ الشيطان؛ القيامة؛ الجنّة والنار؛ الأنبياء:؛ الإمام المهديّ عليه السلام؛ الملاحم؛ الجاهليّة؛ وغيرها.

موصوفات عالم الشهادة:

(تشمل أسماء الذوات وأسماء المعاني) النبيّ صلى الله عليه وآله؛ نفسه المقدّسة صلوات الله وسلامه عليه ومنزلته؛ أهل البيت:؛ القرآن الكريم؛ الإسلام؛ الكعبة؛ الفرائض؛ الإيمان؛ التقوى؛

أمرهم (أهل البيت:)؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ الصحابة ﷺ؛ الناس والأشخاص والأقوام وأهالي المدن؛ الخلفاء الذين حكموا قبله؛ الخطايا؛ اختلاف العلماء في الفتيا؛ من يتصدّى للحكم من الأُمّة وليس لذلك أهل؛ السماء والأرض؛ قتل عثمان؛ الشبهة؛ أعمال بعض الناس كعمل مصقلة بن هبيرة الشيبانيّ؛ خطأ الفرق على اختلاف حُجَجِها في دينها؛ الفتن؛ الموتى؛ حثالة المجتمع في كلّ زمان ومكان؛ الظلم؛ الحَكَمان؛ بعض الحيوانات؛ القبر؛ ذمائم الصفات، الغوغاء؛ بيعته بالخلافة؛ اللسان؛ أداء الأمانة؛ الحديث واختلاف الأخبار؛ العصبيّة والتعصّب؛ وأمثالها.

وتوجد ملاحظة مهمّة جدّاً وهي انّ الوصف الملحوظ في الأدب العربيّ هو الوصف الحِسّيّ للأشياء المحسوسة الملموسة. أمّا الوصف الغيبيّ فقلّ من تعرّض إليه من الأدباء، وهذه نقطة هامّة لا نُغالي إذا قلنا: إنّ أحداً لا يشارك الإمام عليه السلام في هذه الخصيصة في طبيعة الوصف وعمقه.

أقسام الوصف في نهج البلاغة:

يُستشفّ من طبيعة الوصف في نهج البلاغة أنّه ذو أبعاد تعليميّة وحكميّة وتسجيليّة وبيانيّة. ولكلٍّ منها قسطه في البحث. وقد يتداخل بعض الأبعاد في بعض لكنّ عناوينها تغلب على ما تداخل فيها. والحقّ أنّ كلّ قسم من أقسام الوصف يحتاج إلى دراسة مستقلّة غير أنّنا نقتطف منها ما يناسب حجم هذا البحث، فنخصّ كلاً منها بتعريف مشفوع بالمثال وتحليله. بيد أنّ طول هذا البحث وتفصيله يقتضي تقسيمه قسمين: الأوّل: يشمل الوصف التعليميّ. والثاني: يشمل الوصف الحكميّ؛ والتسجيليّ؛ والبيانيّ المفاهيميّ.

١ـ الوصف التعليميّ:

وهو الوصف الذي يتناول ضروب المعارف والعلوم، ويتوخّى التعليم والتفهيم والتعريف، ويمزج هذه الأشياء بالإعلام والتنبيه والتذكير ولفت الأنظار. وهذا القسم هو الذي يحقّق للإنسان إدراك الحقائق واستبصارها. وأكثر الناس كما نطق به القرآن الكريم يجهلون حقائق الأُمور، فهذا الوصف يقشع عنهم سحائب الجهل. وهو الذي يغذّي الفكر ويمدّه بالتعاليم الصحيحة والأفكار المستقيمة والمثل العليا والمفاهيم القيميّة. وتدخل في هذا الوصف معظم الموصوفات الغيبيّة والحسّيّة، لأنّه هو النواة الأصليّة للوصف في النهج، إذ هو

- كما ذُكِر - يولّد المعرفة. والمعرفة ضالّة المتحسّسين.

إنّ أوّل الموصوفين في هذا القسم هو الله ربّ العالمين تبارك وتعالى، وقد شغل مساحة كبرى من النهج. وبلغ الإمام عليه السلام في وصفه لربّه مالم يبلغه غيره سابقاً ولاحقاً إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله، بل تفرّد عليه السلام في ذلك حتّى إنّ ابن الحديد قال في شرحه: ((وهذه الفضيلة عندي أعظم فضائله عليه السلام)). (٦: ٣٤٦). وهذا الوصف كلّه مدح وثناء وتمجيد وتعظيم. ويلحظ وصفه لربّه سبحانه في نحو سبع وثلاثين خطبةً وكلاماً، كما تعدّدت أذكاره والإشارات إليه في تضاعيف الخطب والكلمات المذكورة وفي غيرها. وكلماته عليه السلام جميعها عجيبة رائعة في هذا المضمار، ولم يُسبَق بمثلها بلاغةً وجلالةً وعظمةً. ولايدرك ذلك إلاّ أهله. ونقل الشيخ التستريّ في بهجه البهيج ((بهج الصباغة)) عن الشيخ الكلينيّ في ((الكافي)) انّه قال بعد ذكر خطبة للإمام عليه السلام في باب جوامع التوحيد: ((هذه الخطبة هي كافية لمن طلب علم التوحيد إذا تدبّرها، وفهم ما فيها. فلو اجتمع ألسنة الجنّ والإنس - ليس فيها لسان نبيّ - على أن يبيّنوا التوحيد بمثل ما أتى عليه السلام به - بأبي وأمّي - ماقدروا عليه. ولولا إبانته عليه السلام ما علم الناس كيف يسلكون سبيل التوحيد. (١: ٦٢). وقال الشيخ محمّد عبده في وصف الإمام عليه السلام لله جلّ ذكره: ((للإمام كلام قد مُلئ بصفاته سبحانه، بل هو في هذا الكلام (في الخطبة الأُولى من النهج) يصفه أكملَ الوصف)). (١: ١٥). ونعم ما علّق به ابن أبي الحديد على فقرات من خطبة الأشباح التي هي من جلائل خطبه عليه السلام، فقد قال بعد قوله عليه السلام في وصف ربّه سبحانه: ((عالم السرّ من ضمائر المضمِرين... مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله...)):... بل لو سمع هذا الكلام ارسطوطاليس، القائل بأنّه تعالى لا يعلم الجزئيّات لخشع قلبه، وقفّ شَعره، واضطرب فكره، ألاترى ما عليه من الرُواء والمهابة، والعظمة والفخامة، والمتانة والجزالة! مع ما قد أُشرب من الحلاوة والطلاوة واللطف والسلاسة؛ لا أرى كلاماً يُشبه هذا إلاّ أن يكون كلامَ الخالق سبحانه، فانّ هذا الكلام نبعة من تلك الشجرة، وجدول من ذلك البحر، وجذوة من تلك النار...)) (قاسمي (فارسي): ٩٤؛ الحسينيّ الخطيب ٢: ١٧١. وكلاهما نقلاه عن ابن أبي الحديد ٧: ٢٤).

لقد وصف الإمام عليه السلام ربّه سبحانه مبتدئاً بمدحه جلّ وعلا لأنّ أساس الدين معرفته، ((أوّل الدين معرفته)) (نهج البلاغة، الخطبة الاولى). وليُعرَف بأنّه صانع العالم فيكون

الإيمانُ به. وما أراد عليه السلام من وصفه لله تبارك اسمه إلاّ تقديس صفاته، وبيان عظمته التي لا تتناهى، وتعريف الناس بالذات الالهيّة المقدّسة، وتنبيههم على وجودها الواجب وعظمتها غير المحدودة، وجذبهم إليها ولفت أنظارهم إلى كينونتها، وتقوية يقينهم بها فتطمئنّ قلوبهم ويؤمنوا بالله حقيقة الإيمان ويعبدوه، فغاية وصفه عليه السلام تعبيد الناس لربّ العالمين، وهي غاية قرآنيّة ونبويّة.

ويُثبت لنا وصفه أيضاً أنّه قد عرف الله سبحانه حقّ معرفته لأنّه وصفه أكمل الوصف وأتمّه وأوفاه. وفيه من الإقرار بالعبوديّة والتسليم المطلق ما يحمل المخاطبين على ذلك الإقرار والتسليم. كما يُظهر لنا وصفه شديد حرصه على أن يؤمن الناس بالله تعالى ويتوجّهوا إليه ويذكروه ويعظّموه ويوقّروه. وفيه بثّ لقيمة ربّانيّة من القيم التي تعمر الحياة. والعجيب العجيب في وصفه أنّه يُرغم حتّى الملحدين والمنكرين والشاكّين على الإيمان باللّه. وفيه استحضار دائم للعلاقة بذي الجلال والإكرام.

تلك هي الدروس والأهداف المستوحاة من وصفه بإيجاز. وهي تمثّل تحليلاً مركّزاً للوصف الذي نطق به الإمام عليه السلام في نعت ربّه جلّ شأنه. ومن يتكلّم عن الله سبحانه بهذا الكلام البكر إلاّ هو؟ وحريّ بالذكر أنّ هذا الوصف وحده خليق بدراسة مستقلّة يطول حجمها. واللافت للنظر في وصفه عليه السلام لله سبحانه أنّه وصفه وكأنّه كان يراه. وتلك الرؤية هي التي عبّر عنها في جوابه عليه السلام لذِعلَب اليمانيّ حين سأله: هل رأيتَ ربَّكَ يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟ فقال: ((لاتراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. قريب من الأشياء غير مُلامس. بعيد منها غيرُ مباين. متكلّم لابرويّة، مريد لا بهمّة، صانع لا بجارحة. لطيف لا يُوصَف بالخفاء. كبير لا يُوصَف بالجفاء. بصير لا يوصف بالحاسّة. رحيم لا يوصف بالرقّة. تَعنو الوجوه لعظمته، وتَجِبُ القلوبُ من مخافته)). (نهج البلاغة: الخطبة ١٧٧). وقيل: إنّ ذعلباً خرّ مغشيّاً عليه. ثمّ قال: تالله ما سمعتُ بمثل هذا الجواب، والله لاعدتُ لمثلها. (التستريّ ١: ٢٨٥).

واللافت للنظر أيضاً انّه ((يندر أن يخلو كلام الإمام عليه السلام من معاني تعظيم الله تعالى وإثبات وحدانيّته وبيان صفاته سبحانه. وكلّها مستقاة من القرآن العظيم، فللإمام عليه السلام خطب كثيرة في موضوع وحدانيّة الله تعالى، فضلاً عن دأبه على افتتاح كلامه بذكر الله

تعالى والثناء عليه وتعظيمه. ونهج البلاغة كلّه مثال لذلك)). (الفحّام: ٣٥١).

وممّا قاله عليه السلام في وصف الله سبحانه:

- الذي لا يُدركه بُعدُ الهمم ولا يناله غوصُ الفطن (الخطبة الاولى).

- هو القادر الذي اذا ارتمت الأوهام لتُدرك منقطع قدرته، وحاول الفكر المبّرأ من خطرات الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته، تولّهت القلوب إليه لتجري في كيفيّة صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته، ردعها، وهي تجوب مهاوي سُدَف الغيوب متخلّصة إليه سبحانه... (الخطبة ٨٩).

- الأحد بلا تأويل عدد والخالق لا بمعنى حركة ونَصَب... (الخطبة ١٥٢).

- يُخبر لا بلسان ولهوات، ويسمع لا بخروق وأدوات... (الخطبة ١٨٦).

يبيّن عليه السلام في أوصافه المذكورة وأمثالها انقطاعه التامّ إلى الله سبحانه، ومعرفته الحقّة به، وإشعار الناس بعظمته التي لا يُدرَك كنهها، وترغيبهم في توجيه وجوههم له لا لغيره، وتعليمهم كيف يخاطبون ربّهم... ((ولايمتلك أحد الجرأة - مستثنين رسول الله صلى الله عليه وآله طبعاً - على ذكر الذات المقدّسة وصفاته بهذه الدقّة غير عليّ بن أبي طالب عليه السلام، بل ليست لأحدٍ هذه المعرفة بالله تعالى سواه...)) (الفحّام: ٣٥٣).

((ولعلّنا نستطيع أن نعدّ البحوث التوحيديّة في نهج البلاغة من أعجب بحوث هذا الكتاب، فانّها - بدون مبالغة، ومع الالتفات إلى الظروف الزمانيّة والمكانيّة للصدور - تقرب من حدود الإعجاز)). (مطهري: ٣٩، ترجمة هادي اليوسفيّ).

أمّا الموصوف الثاني في هذا القسم فهو رسول الله صلى الله عليه وآله الذي ذُكر في قُرابة تسعة وعشرين موضعاً من النهج بأبدع ما يكون من الكلام وأروعه. وتكرّر ذكرهُ صلى الله عليه وآله في مواضع أخرى وصفاً لشخصه الكريم، أو نعتاً لبعثته، أو شهادةً بعبوديّته ورسالته، ونظير ذلك.

وممّا قاله عليه السلام في وصف رسول الله صلى الله عليه وآله:

((... إلى أن بعث الله سبحانه محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله لإنجاز عِدَته، وتمام نبوّته. مأخوذاً

على النبيّين ميثاقه، مشهورة سِماته، كريماً ميلاده...)) (نهج البلاغة: الخطبة الأولى).

ويمكن أن يقال في تحليل كلامه عليه السلام هذا: إنّ الله سبحانه وعد بإرساله صلى الله عليه وآله على لسان أنبيائه السابقين:. وقد أخذ الميثاق منهم جميعاً بالتبشير بنبوّته صلى الله عليه وآله، وعلاماته مشهورة في كتبهم التي بشّرت به، وهو كريم المولد والمحتد. ويتمثّل جميل الوصف هنا ببشارة جميع الأنبياء: بمبعثه صلى الله عليه وآله قبل أن يولد بآلاف السنين، فيالها من منزلةٍ رفيعةً لاتُبارى! وياله من وصف رائعٍ مُعَلِّمٍ يدلّ على سرّ من أسرار عظمته صلى الله عليه وآله.

وهذا هو الوصف المعهود الذي يدلّ ويرشد ويأخذ بالقلب إلى مراشده.

وقال عليه السلام فيه صلى الله عليه وآله أيضاً:

((... فهو إمام من اتّقى وبصيرة من اهتدى. سراج لمع ضوءه، وشهاب سطع نوره، وزَند بَرَق لمعه. سيرته القصد، وسنّتُهُ الرشد. وكلامه الفصل، وحكمه العدل...)). (نهج البلاغة: الخطبة ٩٢).

وقال عليه السلام واصفاً كلامه وصمته صلى الله عليه وآله:

((... كلامه بيان، وصمته لسان)). (نهج البلاغة: الخطبة ٩٤).

وقال عليه السلام ذاكراً عدداً من نعوته صلى الله عليه وآله:

((حتّى أورى قبساً لقابس، وأنار علماً لحابس، فهو أمينك المأمون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمةً، ورسولك بالحقّ رحمةً...)). (نهج البلاغة: الخطبة ١٠٤).

((والمراد أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أفاد طلاّب الحق مابه يستضيئون لاكتشافه)). (عبده ١: ٢٠٤).

ويتجلّى في تحليل وصفه عليه السلام رسولَ الله صلى الله عليه وآله شعوره العميق الصادق بقداسة شخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وتمثّله تلك القداسة. وهو مالم يُلاحَظ قطّ في أدبيّات مَن سبقه مِن الخلفاء. ويبيّن الوصف شدّة تعلّقه برسول الله صلى الله عليه وآله وانشداده الدائم إليه. وتعلّقه هذا عجيب لم يدانه فيه صحابي قطّ حتّى إنّه بلغ مبلغاً جعل القيام على أمواله للحسنين عليهما السلام دون سائر ولده. فقال عليه السلام من وصيّة له بما يُعمَل في أمواله: ((... وإنّي إنّما جعلتُ القيام بذلك الى ابنَي

فاطمة ابتغاءَ وجه اللّه، وقُربةً إلى رسول اللّه، وتكريماً لحُرمته وتشريفاً لوصلته)). (نهج البلاغة، قسم الكتب، الكتاب ٢٤).

وتعظيمه لرسول الله ﷺ تعظيم لشعائر الله سبحانه، وهو فضيلة قد تفرّد بها (ابن أبي الحديد ٢: ٢٢٠، الحسينيّ الخطيب ٢: ٢١٧ - ٢١٩). وأراد عليه السلام إشعار الناس بعظمة نبيّهم ﷺ وسموّ مكانته وعلوّ منزلته وقداسة شخصه. كما أراد ترسيخ الوعي الحقيقيّ لأصل النبوّة ولشخصه المقدّس ﷺ، وانتهاج الهدفيّة في التوجّه إليه وحبّه وطاعته والتعبّد المطلق بسنّته.

وأمّا الموصوف الثالث في هذا القسم فهو نفسُهُ عليه السلام إذ وصف نفسَهُ المقدَّسة مادحاً في ما يربو على خمسين موضعاً من نهج البلاغة ما عدا المواضع التي وصف فيها أهل البيت: وهو أحدهم. وفي وصفه هذا مافيه من تعليم الناس الذين جهلوا قَدرَهُ وتوجيههم وتعريفهم بشأنه. فلم يكن وصفُهُ نفسَهُ للتفاخر والتباهي بل لتعريف الأُمّة بشخصه المقدّس كما فعل الأنبياء:. والحقّ انّه اضطُرّ عليه السلام إلى ذلك إذ نشأت ثلاثة أجيال بعد وفاة رسول الله ﷺ لم تعرفهُ حقّ معرفته فرام تعريفها بنفسه لتهتدي بنور هدايته وتستنير بتعاليمه القرآنيّة النبويّة، ومايُدرينا فلربما كان مكلّفاً تكليفاً إلهيّاً أو نبويّاً بأن يذكر شيئاً من مناقبه وفضائله لتقوم الحجّة على الناس. فالحقيقة الحقّة أنّه وصف نفسه للناس معرِّفاً لا مادحاً. وإنّ قراءةً دقيقةً في الكلمات التي يبدو منها الوصف المادح ظاهراً ترشد إلى أنّه ليس وصفاً ذاتيّاً بل وصفاً رساليّاً.

وممّا قاله عليه السلام في وصف نفسه المقدّسة:

((... ينحدر عنّي السيلُ ولا يرقى إليَّ الطيرُ...)) ويبيّن هنا عظيم منزلته، والجملة الثانية أبلغ من الأُولى في الدلالة على الرفعة كما يقول الشيخ محمّد عبده في شرحه للخطبة المذكورة. (١: ٣١). ((كأنّه يقول: إنّي لعلوّ منزلتي كمن في السماء التي يستحيل أن يرقى الطير إليها)). (ابن أبي الحديد ١: ١٥٢).

- ((لقد اندمجتُ على مكنون علمٍ لو بُحتُ به لاضطربتم اضطراب الأَرْشِيَة في الطَويّ البعيدة)). أي.: الحبال في البئر البعيدة القعر. (نهج البلاغة: الخطبة الخامسة).

- ((اللهمّ إنّي أوّل من أناب وسمع وأجاب، لم يسبقني إلاّ رسول الله ﷺ بالصلاة)). (نفسه: الخطبة ١٢٨).

- ((... والله لو شئتُ أن أُخبر كلَّ رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلتُ، ولكن أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله ﷺ، ألا وإنّي مُفضيه إلى الخاصّة ممّن يُؤمَنُ ذلك منه. والذي بعثه بالحقّ ما أنطق إلاّ صادقاً، وقد عهد إليَّ بذلك كلّه...)). (نفسه: الخطبة ١٧٣).

- ((أيّها الناس سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض)). (نفسه: الخطبة ١٨٧).

- ((... ولم يجمع بيتٌ واحدٌ يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله ﷺ وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشمّ ريح النبوّة. ولقد سمعتُ رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله ماهذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته. إنّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلاّ أنّك لستَ بنبيّ، ولكنّك وزير وإنّك لَعَلى خير... (نفسه: الخطبة ١٩٠).

وحسبنا هذه الفقرات الأخيرة آيةً على علوّ مقامه ومكانته المكينة، كما تبيّن أليم ظُلامته إذ عاش بين أُناس ما قدروه حقّ قدره، وكأنّ وصفَه نفسَه فرض استلزمته رسالته الربّانيّة، فلابدّ من أداء حقّة لتستبين حجّته الرساليّة، ولمّا كان عليه السلام إماماً هادياً للناس، فكيف يهتدون بإمامٍ لا يعرفونه؟ فتوعية الناس وتنبيههم من الأسباب المنطقيّة لذلك الوصف. ومواقف مناوئيه منه عليه السلام كانت تفرض عليه أن يذكر المزيد من فضائله لتتبيّن شدّة تفريطهم بحقّه، وليُلقي عليهم الحجّة، وليشعرهم بسوء مواقفهم.

وأمّا الموصوف الرابع في هذا القسم من الوصف فهم أهل البيت:، ذكرهم الإمام عليه السلام في أكثر من عشرين موضعاً. فأبان فيها عظيم منزلتهم، وكبير شأنهم، وسموّ مقامهم. فقال فى بعضها:

- موضع سرّه، ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حِكَمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه... لا يُقاس بآل محمّد ﷺ من هذه الأمّة أحد... هم أساس الدين، وعماد اليقين...)). (نهج البلاغة: الخطبة ٢).

- وقال: ((هم عَيش العِلم وموت الجهل... هم دعائم الإسلام وولائج

الاعتصام...)). (نفسه: الخطبة ٢٣٦).

أراد الإمام عليه السلام من كلماته هذه وغيرها المبثوثة في النهج أن يُعلِم الناس بموقع أهل البيت: وعلوّ درجتهم، وأنّهم أحقّ بالاتّباع من غيرهم، وأنّ على الناس أن يتّبعوهم نظاماً للأمّة وأماناً من الفُرقة، وقد نطق عليه السلام بكلمات زاخرة بالثناء عليهم لأنّهم أولياء الله وحججه وخلفاء رسوله صلى الله عليه وآله، ولأنّ الناس قد غفلوا عنهم أو جهلوا حقّهم أو لم يرعوا حرمتهم أو لم يعوا قدرهم. فجاء وصفه عليه السلام إيّاهم تطبيباً لتلك الأدواء.

والنقطة المهمّة في هذا الوصف هي انّهم: لايقاس بهم أحد من هذه الأُمّة.

فعطاء الوصف هنا بيانُ حقّ يستوجب العقل الإفصاح عنه لما له من معطيات علميّة واجتماعيّة يستمتع بها الناس جميعاً. والشرع يقضي بذلك أيضاً لأنّهم قادته المفروضة طاعتهم المنسيّة نعمتهم.

وأمّا الموصوفون الآخرون في هذا القسم من الوصف فهم الأنبياء: الذين وصفهم: بعامّة في خمسةِ أو ستّةِ مواضع تقريباً، وذكر أسماء خمسة منهم، وهم: آدم، وموسى، وهارون، وعيسى، وداود:. وجاء هذا الوصف لأنّهم المصطفَون من بين الناس، فلابدّ من الثناء على هذا الاصطفاء الخالص لله سبحانه.

وممّا قاله عليه السلام فيهم: ((واصطفى سبحانه من ولده [آدم] أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم)). (النهج: خ ٩٢).

وقال عليه السلام:

((فاستودعهم في أفضل مستودَع، وأقرّهم في خير مستقرّ. تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهّرات الأرحام، كلمّا مضى منهم سلفٌ قام منهم بدين الله خَلَفٌ)). (نفسه).

وقال عليه السلام:

((بعث الله رُسَلَهُ بما خصّهم به من وحيه، وجعلهم حجّةً له على خلقه، لئلاّ تجب الحجّة لهم بترك الإعذار إليهم، فدعاهم بلسان الصدق إلى سبيل الحقّ)). (النهج: خ ١٤٢).

وتحليلُ وصفه عليه السلام الأنبياءَ: بيانُ عظيم منزلتهم وكبير قدرهم ووجوب الاستجابة

لرسالاتهم ومعياريّة اتّباعهم في التقويم السديد. فهو عليه السلام يعلّم الناس ويعرّفهم بشخصيّات الأنبياء: كي يتوجّهوا إليهم، ويستضيئوا بتعاليمهم، ويقوموا بالقسط، فتستقيم حياتهم ويستقيم كلّ شيء في مسيرتهم.

ويدخل الملائكة: في الوصف التعليميّ. وصفهم الإمام عليه السلام في ثلاثة مواضع من النهج ليدلّ على عظمة مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى التي لاتدركها الأبصار وتدركها البصائر، وليرسّخ الإيمان في نفوس الناس بهم عرفاناً بجميل صنع الله جلّ شأنه وبرهاناً على عظمته غير المتناهية.

وممّا قاله عليه السلام فيهم:

((... ثمّ خلق سبحانه لإسكان سماواته، وعمارة الصفيح الأعلى من ملكوته خلقاً بديعاً من ملائكته... أُولي أجنحة تسبّح جلال عزّته. لاينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعته. ولا يدّعون أنّهم يخلقون شيئاً ممّا انفرد به. ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦ - ٢٧) جعلهم فيما هنالك أهل الأمانة على وحيه... ولم ترم الشكوك بنوازعها عزيمة إيمانهم، ولم تعترك الظنون على معاقد يقينهم، ولا قدحت قادحةُ الإحن فيما بينهم، ولاسلبتهم الحيرة مالاق من معرفته بضمائرهم، وما سكن من عظمته وهيبة جلالته في أثناء صدورهم... فهم أُسراء إيمان... يزدادون على طول الطاعة بربّهم علماً، وتزداد عِزّةُ ربّهم في قلوبهم عِظَماً)). (النهج: خ ٨٩).

ويقسّمهم الإمام عليه السلام في الخطبة الأولى من النهج أربعة أقسام ما ذكرها غيره. الأوّل: أرباب العبادة ومنهم الراكع والساجد والصافّ والمسبّح. (منهم سجود لايركعون؛ وركوع لاينتصبون؛ وصافّون لا يتزايلون؛ ومسبّحون لا يسأمون). وقوله: صافّون، أي: قائمون صفوفاً لا يتزايلون، أي: لا يتفارقون. (عبده ١: ٧٢). الثاني: الأمناء على وحي الله لأنبيائه والألسنة الناطقة في أفواه رُسُله والمختلفون بالأقضية الى العباد، بهم يقضي الله على من شاء بما شاء.

الثالث: حفظة العباد كأنّهم قوى مودعة في أبدان البشر ونفوسهم يحفظ الله الموصولين بها من المهالك والمعاطب... ومنهم: سَدَنَة الجِنان جمع سادن وهو الخادم، والخادم يحفظ

ما عُهِد إليه وأُقيم على خدمته. الرابع: حملة العرش كأنّهم القوّة العامّة التي أفاضها الله في العالم الكلّيّ فهي الماسكة له الحافظة لكلّ جزء منه مركزه وحدود مسيره في مداره، فهي المخترقة له النافذة فيه الآخذة من أعلاه إلى أسفله ومن أسفله إلى أعلاه. (*نفسه*: ٧٣).

ويذكر الإمام عليه السلام زُهاء خمسين صفةً لهم في الخطبة (٨٩) أو (٩٠) المعروفة بخطبة الأشباح. والأشباح: الأشخاص، والمراد بهم هاهنا الملائكة، لأنّ الخطبة تتضمّن ذكر الملائكة، كما يقول ابن أبي الحديد في شرحه (٦: ٣٩٨).

وأحسن ماقيل في تحليل وصفه الملائكةَ: هو كلام ابن أبي الحديد المعتزليّ الذي فاق به كلام كلّ ناطق وأتى بالقول السامق. وأنقله هنا بنصّه لأهمّيّته وبالغ شأنه مكتفياً به لأنّه كلام كافيك من كلام.

قال: ((هذا موضع المثل: ((إذا جاء نهرُ الله بطل نهرُ مَعقِل!)) إذا جاء هذا الكلام الربّانيّ، واللفظ القُدسيّ، بطلَت فصاحة العرب، وكانت نسبة الفصيح من كلامها إليه نسبة التراب إلى النُضَار الخالص. ولو فرضنا أنّ العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة، أو المقاربة لهذه الألفاظ، مِن أين لهم المادّة التي عبّرت هذه الألفاظ عنها؟ ومن أين تعرف الجاهليّة بل الصحابة المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله هذه المعاني الغامضة السمائيّة، ليتهيّألها التعبير عنها؟! أمّا الجاهليّة فانّهم إنّما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أو فَرَس أو حمار وحش، أو ثور فلاة، أو صفة جبال أو فلوات، ونحو ذلك. وأمّا الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحة إنّما كان منتهى فصاحة أحدهم كلمات لاتتجاوز السطرين أو الثلاثة، إمّا في موعظة تتضمّن ذكر الموت أو ذمّ الدنيا، أو ما يتعلّق بحرب وقتال، من ترغيب أو ترهيب. فأمّا الكلام في الملائكة وصفاتها، وصورها وعباداتها، وتسبيحها ومعرفتها بخالقها وحبّها لها، وَوَلَهها إليه، وماجرى مجرى ذلك ممّا تضمّنه هذا الفصل على طوله، فانّه لم يكن معروفاً عندهم على هذا التفصيل. نعم ربما علموه جملةً غير مقسّمة هذا التقسيم، ولا مرتّبة هذا الترتيب بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم. وأمّا من عنده علم من هذه المادّة، كعبد الله بن سلام، وأُميّة بن أبي الصلت، وغيرهم، فلم تكن لهم هذه العبارة، ولاقدروا على هذه الفصاحة. فثبت أنّ هذه الأُمور الدقيقة في مثل هذه العبارة الفصيحة لم تحصل إلاّ لعليٍ وحده. وأُقسم أنّ هذا الكلام إذا تأمّله اللبيب اقشعرّ جلده، ورجف قلبه،

واستشعر عظمة الله العظيم في رُوعه وخَلَده، وهام نحوه وغلب الوجد عليه، وكاد أن يخرج من مُسْكِهِ شوقاً، وأن يفارق هيكله صَبابةً ووجداً)). (ابن أبي الحديد ٦: ٤٢٥ - ٤٢٦).

وهذا هو التحليل الوافي الذي يدلّ على شرح واعد يحتاج إليه كلّ متطلّع راجٍ. وجملة القول: إنّ الإمام عليه السلام بيّن في وصفه المذكور حقيقةً من الحقائق الغيبيّة ليؤكّد اليقين بوجودها.

ويدخل في هذا القسم من الوصف، أعني: الوصف التعليميّ، وصف بداية الخلق في الخطبة الاولى من النهج؛ ووصف خلق آدم عليه السلام فيها أيضاً؛ وخلق الإنسان في الخطبة ٨١ و١٦١ ووصف الموت في الخطبة ٨١ و ٩٧ و ١٢٩، و٢١٨، و ٢٢٧ وفي الكتاب ٢٧؛ وعالم مابعد الموت في الخطبة ٨١ و ١٨٨و ٢٠٢و الكتاب ٣١؛ ووصف الشيطان في الخطبة ١١٩ و ١٣٠ و ١٣٥ و ١٩٠؛ والقيامة في الخطبة ١٠٠ و ١٥٥ و ١٨٨ و ١٩٣؛ والجنّة والنّار معاً في الخطبة ٢٧ والجنّة وحدها في الخطبة ٤٦، ٨٣، ١٦٣، والنّار وحدها في الخطبة ١١٨ و ١٨٨؛ ووصف الإمام المهدي عليه السلام وعجّل الله فرجه في الخطبة ١٣٥ من غير تصريحٍ باسمه عليه السلام، كما أشار إليه في مواطن اخرى من النهج؛ ووصف ملك الموت في الخطبة ١١٠؛ ووصف القرآن الكريم في أكثر من ثلاثة عشر موضعاً؛ والإسلام في ثلاثة مواضع؛ والكعبة في الخطبة ١٩٠؛ والفرائض كالصلاة والصيام والزكاة والحجّ والجهاد في الخطبة الاولى، والخطبة ١٠٨ و ١٩٧ و ٢٦؛ والإيمان في الخطبة ١٨٧؛ والتقوى في الخطبة ١٥ و ١٥٥ و ١٥٩ و ١٨٩ و ١٩٣ و ١٩٦ و ٢٢٧؛ والامر بالمعروف والنهي عن المنكر في الخطبة ١٥٣؛ والصحابة رضي الله عنهم في الخطبة ٩٥؛ واختلاف العلماء في الفُتيا في الخطبة ١٧؛ ووصف من يتصدّى للحكم من الأمّة وليس لذلك أهل في الخطبة ١٦؛ ووصف السماء والأرض في الخطبة ٨٩؛ ووصف خطأ الفرق على اختلاف حججها في دينها في الخطبة ٨٦؛ ووصف بعض الحيوانات كالخفّاش في الخطبة ١٥٢؛ والطاووس في الخطبة ١٦٣، والنملة في الخطبة ١٨٣؛ والجرادة في الخطبة ١٨٣ أيضاً، والضَبُع في الخطبة السادسة.

ووصف عليه السلام جفاة الجاهليّة في الخطبة ١٦٤ وصفاً مشفوعاً بالتشبيه. ووصف الحَكَمَين في الخطبة ١٧٥ وصفاً حقيقاً بالاستظهار. ووصف الظلم في الخطبة ١٧٤. ووصف الشُبهة في الخطبة ٣٨.

وهكذا تتعدّد موارد الوصف التعليميّ في النهج وهي كثيرة، وأبرز ما في الوصف

التعليميّ هو هدفيّته، إذ يعلّم الناس حقيقة الأشياء، ويعرّفهم كيف يعبّرون عنها، وكيف يتّخذون الموقف منها.

نتيجة البحث:

الوصف في نهج البلاغة فنّ أدبيّ سامق وغرض اجتماعيّ تربويّ معطاء. وقد فاض النهج به وتعدّدت مواطنه فيه. وتميّز بقداسته لصدوره عن إمامٍ هو نفس النبيّ ﷺ، وشموله لعالم الغيب مضافاً إلى عالم الشهادة متفوّقاً على الأدب العربيّ الذي اقتصر معظمه على المحسوسات في عالم الطبيعة. وهذا ما تفرّد به أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام إذ استوعب وصفه الغيبيّات والمحسوسات، وتميّز الوصف أيضاً ببعده العمليّ البارز وهدفيّته، وهذا سرّ سموّه إذ يرجح على غيره بثماره العمليّة ومعطياته الملموسة. وترفّع بأقسامه الأربعة: التعليميّة؛ والحِكَميّة؛ والتسجيليّة، والبيانيّة المفاهيميّة. وتناول هذا البحث القسم الأوّل، وذلك بسبب طوله وتفصيله. وستنال الاقسام الأخرى حظّها من الدراسة في جولةٍ قادمة إن شاء اللّه. وصفوة القول: إنّ الوصف في نهج البلاغة مدرسة للتربية والتعليم ينبغي أن يتوجّه إليها كلّ إنسان وينتهل من مناهلها العذبة فيتخرّج عنصراً صالحاً ينفع أُمّته.

ملخص البحث:

موضوع هذا البحث هو الوصف في نهج البلاغة. وتتبيّن أهميّة الموضوع من صدوره عن رجل خاطبه رسول الله ﷺ في أوّل حديث له بعد هبوط الوحي قائلاً: ((انّك تسمع ما أسمع وترى ما أرى)) (نهج البلاغة، الخطبة ١٩٠).

وكفى بذلك آيةً على عظمة الواصف وعلوّ درجته ومن ثمّ حظّ الموصوف ومقدار خَلاقه. فوصفه للأشخاص والأشياء هو الوصف الحقّ لامحالة. وهو عنصر مهمّ من عناصر الرؤية التقويميّة في الحياة، التي تدلّ على اهتمام خاص بما يجري، وعلى تفاعل مؤثّر تستقيم به الحياة. والوصف في نهج البلاغة ليس للوصف ولا للاحتراف ولا للمتعة الشخصيّة أو الترف الأدبيّ، بل هو وصف رسالي هادف معطاء لخدمة الدين والعلم والأمّة والقيم السليمة.

والجديد في هذا البحث هو بيان رساليّة الوصف وصدقه بعد كشفه واستنباطه من كلام الامام عليه السلام وبلورته وعرضه كغرض مستقلّ. والهدف منه هو الكشف عن الأشياء وإبانته

لها، وتنشيط القدرة على التعبير والتحليل، والتنبيه على ضرورة حمل الرؤية التقويميّة للحكم على الأشياء، والتفاعل مع مجريات الأمور تفاعلاً إيجابيّاً نافعاً.

المفردات الرئيسة: الوصف - نهج البلاغة - الرساليّة - الموصوفون.

هوامش البحث ومصادره

- الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة.
- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن محمد، شرح نهج البلاغة، ط٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم؛ تحقيق: عبد الحميد هنداويّ، ط١، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة؛ تحقيق: عبد السلام هارون، قم: مركز النشر - مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٥٤هـ.
- ابن منظور، محمد بن مكرّم، لسان العرب، بيروت: دار صادر، بلا تاريخ.
- ابو هلال، العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ط١، قم: مؤسسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرسين، ١٤١٢هـ.
- الأزهريّ، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة؛ تحقيق: د. احمد عبد الرحمن مخير، ط١، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م.
- التستريّ، الشيخ محمّد تقي، بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، ط١، طهران: دار أمير كبير للنشر، ١٤١٨ - ١٩٨٧م.
- الجوهريّ، اسماعيل بن حمّاد، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، ط٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الحاويّ، ايليا، فنّ الوصف وتطوره في الشعر العربي؛ بيروت: دار الكتاب اللبناني؛ القاهرة: دار الكتاب المصري.
- الحسينيّ الخطيب، السيّد عبدالزهراء، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، بيروت، دار الأضواء، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- الرياحيّ القسنطيني، د. نجوى، في نظرية الوصف الروائيّ؛ ط١، بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٨م.

- الزبيدي، محمّد مرتضى الحسينيّ، تاج العروس من جواهر القاموس؛ تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار إحياء التارث العربي، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.

- الزمخشريّ، محمود بن عمر جار الله؛ ربيع الأبرار، ط١، قم: منشورات الشريف الرضيّ، ١٤١٠هـ.

- الزمخشريّ، محمود بن عمر جار الله؛ أساس البلاغة؛ تحقيق: عبد الرحيم محمود، بيروت: دار المعرفة، ١٣٩٩ هـ -١٩٧٩م.

- الشاميّ، د. يحيى، أروع ما قيل في الوصف؛ بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٩٤م.

- الطريحيّ، مجمع البحرين؛ تحقيق: أحمد الحسينيّ، ط٢، طهران: نشر المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفريّة، ١٣٦٥ش.

- عاصي، ميشال؛ بديع يعقوب، اميل، المعجم المفصّل في اللغة والأدب، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧م.

- عبده، الشيخ محمّد، نهج البلاغة؛ بيروت: مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، بلا تاريخ.

- الفحّام، عبّاس، الأثر القرآني في نهج البلاغة، ط١، النجف الأشرف، منشورات الفجر، ١٤٣٠ هـ - ٢٠١٠م.

- فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربيّ؛ ط٨، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٦م.

- قاسمي، حميد محمّد، قبسات من فنّ الإبداع التصويريّ في نهج البلاغة (فارسي)، طهران، شركت انتشارات علمى - فرهنگى، ١٣٨٧ شمسى.

- الفيروزآباديّ، القاموس المحيط، ط١، بيروت: دار احياء التراث العربيّ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

- محفوظ، عبداللطيف، وظيفة الوصف في الرواية؛ ط١، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

- مطهري، مرتضى، في رحاب نهج البلاغة، ترجمة: هادي اليوسفيّ، ط٢، بيروت: دار التبليغ الإسلاميّ، ١٣٩٨هـ.

- ناصيف، اميل، أروع ماقيل في الوصف؛ ط١، بيروت: دار الجيل، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

- الهاشميّ، جواهر الأدب، ط ٢٩، بيروت: دار الكتب العلميّة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.